

هل للعلم قيود تفرضها الاخلاق؟

للدكتور هنسن أسقف درهام بانجلترا

ترجمها بتصرف الدكتور أحمد زكي

« بدأ شرف من الفتن في منطقات رجالا تعلم ارتاع له الناس . وكيف لا يرتاع الرجل العاقل وقد أُنذر رؤساء ثلاثة لرابطة العلم البريطانية British Association في سرات ثلاث . متعاقبة بالمطر الذي يحرق بالجمع المبددين من جراء التقدم السريع الجاري . ان رجل العلم في العصر الحالى كساحر القرون السبعة الى بيت الشياطين فلا يلبث أن تملك من قبضته ، وتحرر من سلطته ، فتبت في الكون انفساداً وتخريباً »
من خطبة فريضة

العقل العلمى

كلنا متفق على أن العقل العلمى يجب ان يكون خلوًا من كل غرض ، بعيدا عن كل شهوة ، ان هوى صاحبه فلن يتأثر بهواه ، وان انفض فلن يتأثر بغيضه ، فهو عقل يطلب الحقيقة للحقيقة وحدها ، وهو يطلبها في هدوء وثقة واتزان ورجاحة ، لا يزعجه اضطراب تثيره التقاليد حوله ، ولا يهزه اضطراب يبعثه العرف السائد من جراء ما اكتشفه له ، وهو يطلبها في قناعة وعفة ونبل ، فلا تحدته نفسه بما قد تؤدي له الحقيقة المكشوفة من نفع ، وما قد تدر عليه من مال ، وهو يطلبها لحاجة شديدة في نفسه تدفعه دفعا الى علم ما لم يعلم ، كما يدفع الهالك الظمان الى الرى والماء ، وهو لا يفرق بين الحقيقة الصغيرة الحقيرة ، والحقيقة الكبيرة الهامة ، ولا بين الحقيقة تأتيه هوناً ، وبين الحقيقة يأتي بها الجهد الجهد ، فكل مكانه من الخريطة العامة ، وهى لا تتم إلا بتمام أجزائها ، وهو لا يجد لنفسه عرضا كافيا من هذه الجهود ، ولاجزاء وفاقا على متاعب البحث ومصابرة التقيب ، كالعلم الذى تحصله تلك الجهود والابحاث . وبعد فليس بمستغرب أن من يطلب العلم لذاته دون مراعاة شيء غيره ولا بمجاملة أحد سواء يصطدم بكل سلطان قوى الدعايم قديمها ، ومن ذلك سلطان الدين

وقد اشتبك الدين والعلم في معارك بدأت في أواخر العصور الوسطى وامتدت إلى وقتنا هذا (١) . ولا شك أن من أكثر اسباب هذا العراك سوء فهم للدين ، وعدم التمييز بينه وبين علم اللاهوت التقليدى الموروث . وقد خلف لنا هذا العراك سجلات عديدة من مساجلات ومناظرات امتلأت بها رفوف عديدة بدور الكتب ، ولكنها لا تجد الآن قارئاً الا دارساً متشوقاً يأتي إليها الفينة بعد الفينة ، مناظرات لم تولد غير كراهات غاشمة أفسدت الأذهان وأسأت إلى التفكير الخالص في كلا المعسكرين على السواء ، نظر فيها رجال الدين بأعينهم الى الوراء ، الى السنوات الزاهرة الذاهبة حين المجد للدين وحده ، والجبروت للعقيدة وحدها ، والسلطان الذى لا يدافع لرجال الكنيسة وحدهم بلا منازع ولا متجدد ، فعر عليهم أن يُسلموا كل هذا وان يعترفوا للعلم بكثير أو قليل

على ان الخصام الذى بين العلم والدين قل في العصور الحديثة ، او على الأقل هدأت حدته ، وذلك ان اهل اللاهوت تعلموا ولو في كثير من التباطؤ ، وأذعنوا ولو في كثير من التلكؤ ، واهتدوا اخيرا الى التوفيق بين تعاليمهم وتعاليم العلوم الطبيعية من فلك وجيولوجيا حتى علم الحياة وكان اصعبها توفيقاً .

العلم والظهور

ومادام العلم يشتغل بملاحظة حقائق الوجود عن كسب ، وتدوين احداث العالم المادى في أمانته ودقة ، ومادام يخرج النتائج من القروض تخريجاً صحيحاً ، فقد جاز ان يصطدم بعقائد المسيحية التقليدية ، وقد اصطدم فعلاً . وليس من الضروري — ما حبس نفسه في هذه الحدود — أن يصطدم بالاخلاق ما توجهه وما ترتضيه . ولكن عند ما يبدأ العلم يطبق طرائقه التطبيقية على جسم الانسان ويدنه فانه بذلك

(١) يحد تلويح الصراع بين الدين والعلم في امريكا

ينخرج عن حدوده الاولى ، ويبدأ يمس رأى الناس في أنفسهم وأعمالهم ، وبدل أن يكون الخصام بين العلم والدين ، يصبح خصاماً بين العلم وقانون الاخلاق العام Moral Law وهو قانون يشد أجزاء المجتمع بعضها الى بعض ، كما يشد الملاط أجزاء البناء ، وعند ذلك يصبح قانوننا مزعزع الأساس مشكوكا في سلطانه ، ويصبح قضاؤه غير مبرم . ثم يتقاصر ظله ويتقاصر حتى يصبح عبداً للعلم خاضعاً لنتائجه ، مأموراً بعد أن كان آمراً : وعندئذ ينظر الانسان بعين جديدة الى الطبيعة البشرية ، ويصبح الواجب البشرى ذا سيطرة ، ولكنها محدودة مشروطة

وهنا يتساءل : هل يكون للمعمل فتاوى أخلاقية خاصة يتحال بها أصحابه من القانون الاخلاقى العام الذى يتبعون أوامره ونواهيه عن طيب خاطر حيثما ساروا في الدنيا الوسيعة حتى اذا هم دخلوا المعمل أغفلوها جميعاً ؟ أيجوز استخدام التجربة ، ذلك السلاح الرهيب دون مراعاة صالح غير صالح المعرفة للمعرفة ذاتها ؟ ألا ينقلب رفض العلم لمراعاة اعتبارات الحياة الأخرى سبباً الى اقتراف كثير من الآثام ؟ وجملة الامر هل تنقيد الطريقة العلمية بقيود خلقية أم تترك طليقة ؟ واذا هي تقيدت فما هي تلك القيود ؟

قال هكسلى : « إن كل الفلسفات وكل الأديان تقريباً متفقة على أن الحقيقة والجمال والخير غايات ثلاث يطلبها الانسان لذاتها دون ماعداها : أو على الأقل تتفق الفلسفة والأديان على ذلك نظرياً ، أما عند التنفيذ فتظهر اختلافات وتلوح مصاعب ،

ومع ذلك فهكسلى لا يتنازل عن شيء للتنفيذ ، ولا يجود بشيء مما يتطلبه العمل من الضرورات . فهو يقول : « كثيراً ما يقال إن من الأشياء ما يعطى على الفحص والتحصيل لعداسه ، ولكن الرغبة الشديدة في المعرفة الخالصة اذا ملأت رأس الانسان لم تجز له تمحيص كل شيء لحسب ، بل تختم عليه ان يتبع مباحثه غير آبه لأمى المواضع قاذته غافلاً عن كل صفات الأجسام المبحوثة مادامت قابلة للبحث والفهم ،

فإن العقل المعحص لا يرى أن بحث الشيء يمنع منه قدسيته ، وفضلاً عن هذا فإن التجربة دلت على أن المعرفة التى تنال من أجل نفسها عن هذا الطريق ، تقع من النفس منزلة لا تنزلها هي نفسها لو أنها أصيبت عن طريق غير هذا

قال هكسلى ذلك وهو يعرض للدين أكثر من عرضه للخلق ، ولكن كلامه يمكن تمديده حتى يسع الاخلاق . وهكذا يصبح السؤال : هل يصح لنا أن نفترض أن « الغايات الثلاث التى يطلبها الانسان لذاتها دون ماعداها » متوافقة في جوهرها كل التوافق حتى أن من يطلب الواحدة يحصل في النهاية على الجميع . يقول عيميد كاندراية سانت بول : « يجب علينا ألا نفارق بين القيم الثلاث أو نخاضم بينها . فكلنا يتسلق الجبل في طريقنا الى الله . ولكن من طرق ثلاث تؤدي كلها الى قمة الجبل . ومن المحتمل أن نجد من هذه الطرق واحدة هي أيسرها في الصعود »

اننا لا أعنى الآن بالنهاية التى تؤدي اليها القيم الثلاث ، ولكن عنايتي الحاضرة بالنتائج العملية التى تنشأ عنها . ان استعارة العيميد نفسها تتضمن انفصال الثلاث في سبلها من الجبل ، وهذا الانفصال هو بيت القصيد . فلنسلم جدلاً بأن النزاع القديم بين الفن الجميل والاخلاق أكثره سوء في فهم هذا ، أو فهم ذلك ، أو فهمهما كليهما ، ولكن السؤال : هل للثلاث أن ينعض بحق عينه عن الاعتبارات الخلقية وهو يعمل في دارفنه ؟ هل دراسة الفن للفن قضيعة مقلقة ؟

شروط العلم ندرت

أنا أقول إن الطريقة العلمية مشروطة بشروط ثلاث ، أولها الواجب الذى تفرضه الاخلاق على دارس العلم بحكم رجواته ، ذلك الواجب الذى لا يستطيع أن ينسخه أى مأرب من مأرب العلم مهما كان . وثانيها قيود لا بد من تقيد الطريقة العلمية بها ، تحتها حقوق أولئك الذين تؤثر فيهم تلك الطريقة ، وثالثها قيود يفرضها نوع النتائج المقصود من التجربة ؟ (يتبع)